مجلة الموروث مجلد: 03عدد: 02 السنة: 2021
ص: 65 - 83 ISSN:2710-8503/EISSN:2992-1538

رحلة محمد كعباش من الكتّاب إلى الزيتونة في أوتوبيوغرافيا "رحلة العمر"

The journey of Mohamed Kabbash from Elkoteb to A-Zaytouna Mosque in the autobiography "The Journey of the Age"

أ .الزهرة بوطالبي –مخبر اللسانيات النصية وتحليل الخطاب

جامعة قاصدي مرباح –ورقلة– (الجزائر)

zohradz2266@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2021/10/27	تاريخ القبول:.2021/11/19	تاريخ النشر: 2021/11/30

ملخص البحث

يكتسي العلم أهمية قصوى في حياة الإنسانية منذ القدم حيث ارتاد الإنسان فضاءات متمايزة متكبدا المشاق، وراكبا المخاطر والصعاب قصدية استجلابه من الشيوخ والعلماء.

ولعل أشدها في العصور الحديثة على متمفصل الشعوب العربية الكيان الاستعماري الذي ولّد شحنات إيجابية اضطلعت بخرق القوانين التي استهدفت التجهيل، وأقبلت بنَهم على التحصيل.

وإذا قمنا بعملية استقرائية للواقع الرحلي وقتئذ قبضنا –لا مناص– على عينات نتمثلها هنا في شخص المصلح والثوري المناضل الجزائري وابن ميزاب "محمد سعيد كعباش" مخضرم عاصر قرنيين متغايرين عاشت فيهما أرضه حقبتين متمايزتين؛ الاستعمار والحرية . كما أقيمت على شرفه الملتقيات، أنجز مؤلفه الأوتوبيوغرافي "رحلة العمر"، وضمنه سيناريو رحلته العلمية الذي نما وفق درجية تصاعدية مبدؤها من الكتّاب بغرداية وصولا إلى الزيتونة بتونس. وسنحاول في هذه المناولة تجميع شتاتها.

الكلمات المفتاحية : كعباش – أوتوبيوغرافيا– رحلة – كتّاب – ميزاب – جامع الزيتونة

بريد المرسل:zohradz2266@gmail.com

Abstract :

Science is of the most importance in the human life of humanity since ancient times;hence man frequented the four corners of the world, confronting the risks and difficulties to get knowledge from the elders and scientists.

the modern era for the Arab peoples under the colonial entity, generated positive vibes committed to violate the laws that targeted ignorance, And came strongly on the collection

If we process inductively the reality at that time, we must have taken the samples we represent here in the person of reformer and revolutionary Algerian fighter and son of Mizab, "Mohamed Said Kabbash", a veteran who witnessed two distinct epochs: colo-nialism and freedom. His autobiographical work "The Journey of the Age" was also held in his honor, and included the scenario of his scientific journey, which grew according to a gradual progression. In this handling, we will attempt to assemble them after dispersion.

key words: Kabbash -autobiography – journey– elkoteb- Mizab- Zaytouna mosque

مقدّمة:

لامناص أن للعلم أهمية قصوى في حياة الإنسان ولدت لديه دافعية استجلابه من الشيوخ والعلماء من كل الأمصار. وفي العصر الحديث شكّل الكيان الاستعماري عائقا في تحصيله مكرّسا لسياسة التجهيل.

لكن هناك نماذج خرقت قوانينه منها ابن ميزاب "محمد سعيد كعباش"؛ تلك الشخصية الأيقونية المائزة بخصوبة إنجازاتها العلمية، أهلت مواردها الخام أن تدرس في المحافل الدولية والملتقيات الوطنية. استمدت خصوصيتها من الحقبة الزمنية المحصّلة فيها.

سنحاول في هذه المناولة تجميع سيناريو رحلته من الكتّاب بغرداية إلى جامع الزيتونة بتونس ، عارضين للصعوبات التي زاحمته، ودارسين لبنيانه الرحلي المؤسس على الرفيق، والشيوخ، ووصف الطقوس الميزابية المتميزة زمن الثورة ، والأشعار التي تتخللها.

لكن في البداية نتعرف على كعباش، ومؤلفه مدونة الرحلة الموسوم ب "رحلة العمر".

1_ التعريف بالمؤلف : يعد محمد " سعيد كعباش " نمذجة لرموز الإصلاح في العصر الحديث في ميزاب، ولد خلال سنة 1929م في العطف بولاية غرداية (الجزائر)، نشأ يتيماً فقيراً. وتكونت ثقافته عبر خريطة فضائية علمية تمتد حدودها داخل الوطن وخارجه مردودها فعالية في حقل التربية والتعليم حتى تقاعد سنة 1990م.

كما أنتج تراثا خصبا مزدوج الهوية فيه جماع بين الأدب والدين؛ منه كتاب (نفحات الرحمان في رياض القرآن)، وصرخات على مسرح المجتمع، وسيرته الذاتية وسمها ب (رحلة العمر).

2–التعريف ب "رحلة العمر " : أنجز كعباش مؤلفه الأوتيوبوغرافي " رحلة العمر "، وضمنه خلاصة مجموع تجاربه الحياتية؛ حيث قسّمه إلى خمس محطات تتناسب ومراحل الإنسان العمرية خضعت لتزامنية حدثية متغايرة على أن رحلته العلمية _ موضوع المناولة _ تموقعت أساساً في مرحلتي الحداثة والصبا، ومرحلة الشباب والتكوين.

فما هي الفضاءات العلمية التي ارتادها؟ وهل كانت رحلاته جبرية أم اختيارية؟

– رحلة كعباش من الكتّاب إلى جامع الزيتونة في أوتيوبوغرافيا " رحلة العمر" :

تعتبر الرحلة العلمية نقلة براغماتية تبنى على اقتحام فضاءات متباينة، وتتمظهر عبر عملية تواصلية تستدعي الاحتكاك بالشيوخ والعلماء قصدية التحصيل والاستزادة بمختلف العلوم، يعرفها أبو القاسم سعد الله: « تلك الرحلات التي قام بها أصحابها بغرض طلب العلم والزيارة والاطلاع على البلدان والأخذ من علمائها، وممارسة التجارة فيها أحيانا »[1] فهو يشير إلى أن الرحلة العلمية تتزاحم فيها دوافع الرحالة، لعامل سياحي أو تجاري مثلا لكنها تتقاطع في هدف التحصيل العلمي.

عنون كعباش سيرته الذاتية "برحلة العمر" إيمانا منه بأن العمر ما هو إلا رحلة زمكانية تتأرجح بين الطول والقصر، خالقا لحالة مزجية بين فني السيرة الذاتية والرحلة تعد امتدادا لمشاريع مثلية سابقة تشاكل منهج ابن خلدون في كتابه (التعريف بابن خلدون و رحلته غربا وشرقا)؛

فهو ترجمة ذاتية لحياته « يعنى بوصف المراحل والمسيرات، والتنقلات والمتابعة والأسفار، ومن جهة ثانية يتجه إلى الحديث عن النفس و خلجاتها، وآمالها، وآلامها وانتصارها، وانكسارها يتحدث عن سيرة حياة شهرة من طفولة وشباب وشيوخ وانجازات، ومؤلفات، ومناصب، ونكبات »[2]

أولا– تدوين الرحلة : لامناص أن تدوين الرحلة يخضع لمناهج متغايرة، لكن إن قمنا بقراءة الرحلة الكعباشية، ومعاينة مادتها الخام حصّلنا قرائن لفظية دالة على المنهج. .

قارب السارد في مخاض تجربته السردية التدوين الزمني؛ وهو أكثر المناهج شيوعا، وتنوعا على المتمفصل الداخلي، يتميز بالدقة و الضبط، ويستلزم تدوينا آنيا.[3] دلالية ذلك محصلة مساءلة مقدمته، وتحليل شفراتها اللفظية؛ أقرّ كعباش أن مصدره المعلوماتي الرحلي مذكراته، قلّص سيناريو مادتها إلى النصف (من ست مئة صفحة إلى ثلاث مئة)، وهي إحالة صريحة لكينونة المنهج الانتقائي. كيف ذلك؟

إذا عقدنا موازنة بين ما قاله السارد وماهية المنهج نحصل على وحدة دلالية؛ يقول: « ورأيت أن لامناص من الاختصار، والتركيز على التعريف بجوانب من حياتي في ما هو ألصق بي...مما هو ضروري لرسم الصورة الحقيقية لمراحل تلك الحياة»[4] أي أن معيار الاختيار هو الاختزال والطرح للأحداث المهمة وتبريز الأهم لإنجاز دفتر حياتي يشكل معادلا موضوعيا للهدف. وفي السياق نفسه يرى ناصر عبد الرزاق أن الرحالة يحاول تجميع رحلاته في مؤلف أحادي، بيد أنه يستدرك وينتقي أفضل الأحداث شرط تجاوبها مع الهدف الجديد[5].

خلاصة القول زواج كعباش بين المنهج الزمني والانتقائي متكأ على المذكرات التي قلصها مراعاة لمقتضى الحال .

ثانيا– فضاءاتها العلمية : قام كعباش بتسريد رحلته العلمية في منجزه الأوتيوبوغرافي عبر قنوات متعددة وفق درجية ترابية تصاعدية:

1**–الكتّاب**: شتت السارد حيثيات رحلته الكتابية في جسد الحقبة الحداثية والطفولية قمنا بتقطيعها استناد إلى التمايز الفضائي والزماني والسيكولوجي إلى جبرية واختيارية :

أ–الجبرية: يمكن توصيفها بالجبرية متكئين على مرجعية خضوعها لمقياس تواضع المحيط البشري العربي والميزابي القائم على توجيه الصغار إلى الوجهة الدينية لحفظ كتاب الله جل وعلا ، وابن خلدون يؤكد أن تعليم الولدان للقرآن من شعائر الدين .[6]

حدد كعباش فضاء الانطلاق الرحلي اليومي من بيته بالعطف، والمكان الهدف (مسجد أبي سالم)، ناقلا إلحاح أمه على إلزامه، ودفعه لارتياد الكتاب؛ لعوامل حجاجية أسّها تحقيق منفعة علمية للثواب والتبرك، تكون عازلا مانعا لتسرب الرفقة السيئة .ف« وجه ما اختصت به العوائد من تقدم دراسة القرآن إيثارًا للتبرك والثواب، وخشية ما يعترض الفتى في جنون الصبا من الآفات، والقواطع عن العلم فيقيه القــرآن ».[7]

وكان نتاج محصلة هذا التخطيط المحكم خصبا تمظهر في اكتساب الفتى ملكة حفظ القرآن في مدى قصير لا يتجاوز عشر سنوات.

ب– الاختيارية : شكّلت نقلة نوعية وفضائية في رحلات السارد، لمغايرة المكان و القصدية؛ إذ انبثقت من رحم رحلة العمل خارج مكان الانتماء تحديدا في (مسعد) ولاية الجلفة، أين انتسب كعباش إلى كتّاب الشيخ (أحمد بن عبد القادر الزنيني) فشكّلت الواقعة منعكسا شرطيا استفز رصيد مخزونه من المواد الأولية القرآنية المترسبة في الذكراة، وهناك بدأ عملية استرجاع، وحفظ النصف الأول منه بعد هجره لسنوات في مدة قياسية.

كما أشار إلى تمدرسه بالمدرسة الفرنسية في قريته التي قاطعها الميزابيون الميسورون لعلّة وطنية عقائدية باعتبارها لغة الكافر المحتل، ملمّحا إلى الأوجه الموجبة من تعلمها.

2– البعثة إلى القرارة : وردت جزئية في مرحلة (الشباب و التكوين) عنونها (بين أحضان البعثة بالقرارة).

سرد كعباش ملابسات التحاقه بالبعثة سنة 1945 وفق استراتيجية؛ مهدها تفعيل طاقاته الكامنة في الحفل المخصص لتحضيرات البعثة من خلال تقمصه لدور (أمية بن خلف) في

مسرحية (بلال بن رباح)، وبعد انتقاء عينة من شريحة أبناء سراة البلد للسفر، ضاقت أفق انتظاره نظير رغبته الملحة في الالتحاق بأقرانه.

بعد شهرين من المد و الجزر تمكن من ذلك عبر جسر عبور مطلعه العطف، فغرداية من خلال كراء دابة لحمل المتاع، ثم ركب الحافلة التي أوصلته إلى فضاء العلم (القـــرارة).

وهناك اندمج مع البعثة الجديدة متباينة الأفعال والمشارب، وشكّل حفظه للقرآن –مسبقا– ذريعة لاستدراك ما فاته مباشرة؛ لأنه شرط الالتحاق بالمعهد.

تميز كعباش بالحضور والفعالية من خلال منتجاته الشعرية والنثرية حتى أسندت إليه مسؤولية البعثة العطفاوية سنة 1948، وتولى قلم التحرير لمجلة (الرقيب) الخاصة بها.

3– **البعثة في تونس** : كان كعباش طموحا لم يقنع بما ناوله في الكتاب و البعثة القرارية لبداياته القرآنية « إن التعليم في الصغر أشد رسوخا وهو أصل لما بعد؛ لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات، وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال ما يبني عليه » [8] لا شك أن النشأة العلمية الأولية لكعباش مهدت قابلية الخوض في غمار العلوم، فكانت قبلته تونس التي تصنف ضمن رحلات المثاقفة حيث « انصرفت جهـود العديد من الرحالة إلى تدوين نصوص رحلية تندرج ضمن خانة الرحلات الوصفية التي يدونها الرحالة عقب رحلة سافر فيها إلى مكان آخر بقصد التحصيل العلمي، وتلاقح التجارب الثقافية والاحتكاك بمكونـــات معرفية وثقافيـــة أخـــرى » [9].

وقد حدثنا أبو القاسم سعد الله عن تلك البعثات الميزابية البديلة إلى تونس التي تدفقت بين الحربين قصد التكوين خرقا لقوانين المسار التعليمي الذي فرضته فرنسا على الجزائريين « وتواصلت البعثات الميزابية البديلة إلى تونس بين الحربين ... وقرر مسؤولو معهد الحياة وعلى رأسهم الشيخ إبراهيم بيوض إرسال بعثة منه إلى تونس لمواصلة الدراسة الثانوية ... ثم أخذ الطلاب يتواردون على تونس. فوصل بعضهم سنة 1943 وآخرون سنة 1944 وهكذا »[10].

سطّر كعباش استراتيجية ذكية؛ بذورها جس نبض سراة البلد خاصة أعضاء (جمعية النهضة) حتى طرحت ثمارها بمشروعية السفر، الذي استغرق (4) أربعة أيام عبر جسر عبور محطة انطلاقه الجلفة، فبرج بوعريريج، ثم قسنطينة، فسوق أهراس، ثم تونس على طريق (غاردوماو) للسكة الحديدية.

لم يتجاوز كعباش ومن معه المرحلة الابتدائية، والشهادة المتحصل عليها من (معهد الحياة) لا تعادل شهادة برنامج الزيتونة؛ لأنها تعتمد أساسا على المواد العلمية كالرياضيات والفيزياء والعلوم الطبيعية المعدومة في المدارس الجزائرية المتوافرة في المدارس الفرنسية لذلك انتقى الطلاب برنامجا تحصيليا.

تواترت دراسة كعباش بين حصص الزيتونة والمعهد الخلدوني، وبعد اجتياز امتحان الدخول المخرط في جامع الزيتونة رسميا لمدة سنتين (1950_ 1952) للحصول على الشهادة الأهلية في العلوم العلمية. ولكن بسبب الأوضاع السياسية المتوترة وقتئذ اقتصر على بعض الحصص فقط.

أما فضاء الإقامة فمركزه (دار الجماعة) لسوق البلاط، ثم تحول المكان إلى دار البعثة في نهج ابن خلدون، حيث أصبح كعباش عضوا فعالا في المكتب الإداري، ثم عاد إلى أرض الوطن.

وفي سنة 1953 عاد إلى تونس على حدود غاردومار، أين عدّلت سنن الالتحاق بالبعثة (فئة الكبار والصغار)، وبعد إنهاء دراسته تقلد مسؤولية الإدارة. وفي سنة 1954 عاد محمّلا بالكتب محدداً طريق العودة؛ عبر برج بوعريريج، ثم الجلفة ليعود إلى العطف.

4-الجامعة **الجزائرية** : بعد هذه الرحلة العلمية الخصبة عيّن كعباش مربيا في قطاع التربية والتعليم بالطور المتوسط، لكن الطموح دفعه إلى الاستزادة العلمية، فانتسب إلى الجامعة الجزائرية في أوائل السبعينات للحصول على شهادة الليسانس في خلال آلية تسجيل المحاضرات، والتنقل اليومي إلى بنورة للمذاكرة مع زملائه.

ثالثا–الرحلـــة بين الانقطاع و العـــودة :

لم تكن حلقات التعليم الكعباشية متسلسلة متواترة، حيث اتصفت بالانقطاع لحجيّة أسّها بعد تقصي المادة الرحلية ينشطر إلى نوعين من الانقطاع. ترى ما هي دوافعه وأسبابه؟

1– **الانقطاع الأوليّ** : تمركز في بداياته التعليمية نتاج التراكم المعلوماتي المائز بأحادية المعلومة كرّس للتنفير من تعاطي العلوم المسجدية نظير تحقيق عملية التشبع أدّى به إلى هجر العلوم « لأن المتعلم إذا حصل ملكة ما في علم من العلوم استعد بها لقبول ما بقي، وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض إلى ما فوق، حتى يستولى إلى غايات العلم »[11].

نستأنس لتأكيد هذا التفسير المنطقي باستجلاب قول كعباش « لم يعد التردد إلى الكتّاب ما يشبع نهمي إلى مزيد من المعرفة ضرورة أنني قد استوعبت أكثر ما يمكن أن يقدم لتلميذ في مثل سني من مبادئ اللغة العربية وختم القرآن »[12].

هذا ويمكننا استنباط دوافع أخرى منها: حبه للسفر فقد كانت باكورة أسفاره سياحية إلى (الجلفة) بمعية أبناء عمومته، ولعله أساس اعتقاده بمتعة السفر، وشعوره بالمسؤولية في إيجاد الموارد المالية لتغطية التكلفة المعيشية وليدة الظروف الاجتماعية والسياسية لقهر العدم.

ارتحل كعباش إلى (مسعد) للعمل، وفي بؤرة فراغ زمني قدره نظير غياب رب العمل انضم إلى الكتّاب باعتباره سنّة لقتل الفراغ. ومن هنا تتحدد أهم أسباب العودة إلى طرق باب العلوم: وهي استعداده الفطري الذي مهد له رصيده المعرفي المكتسب؛ فبعد امتصاص المعارف يستلزم اجترارها واسترجاعها.

والرسالة التي تمظهرت؛ في رسالة شيخ الكتّاب (بن بهون) بحثّه على العلوم قائلا:« إنك لم تخلق للذارع والميزان، ولكن للدواة والقلم والعرفان »[13]. والرسائل التي شحنت الهمم واستفزت الفضول من خلال قراءة السيد المفضال رسائل ابنه المنتسب إلى معهد الحياة بالقرارة على كعباش وأصحابه مما جعلهم يحلمون بمصير مماثل.

2- الانقطاع في القرارة و تونس أسبابه مادية؛ حيث كان يبحث عن متكفل بمصاريف الدراسة خاصة بعد زواجه أين ألزمه الأوصياء بضرورة العمل، ولكن سرعان مازال العائق.

خلاصة القول: بعد تمكن العلوم من قلب كعباش عمل على اقتناص وخلق الفرص للعودة إليها في كل مرة يحدث الجفاء، من خلال إيجاد وسيط يقنع المتكفلين بتغطية المصاريف.

رابعا: بنية الرحلة: استنادا إلى المعطيات السابقة المتعلقة بطرح الفضاءات العلمية للرحلة و التعرض لسيرورتها، من انقطاع ووصال نخلص أن الرحلة ذات بنية نمطية، هي:

أ_ المقدمة أو التمهيد

ب_ رحلة الذهاب

ج _ وصف هدف الرحلة

د _ رحلة العودة و الخاتمة .[14]

يبتدأ في المقدمة بتشخيص الوضع المتعلق بالرحلة ساردا حيثياته وملابساته، معلنا رغبته في خوضها، عارضا للصعوبات المعيقة، وباحثا عن سبيل لتحقيق الهدف، ليصل بعدها إلى تحديد رحلة الذهاب دون تفصيل. وبعد الوصول إلى الفضاء العلمي وجدناه يركز على لبنات بنائية أساسية هي: الرفيق، الشيوخ، والمواد العلمية المدروسة، ولعلنا نلامس هنا تداخلا مع البنية المحورية لكون الرحالة« يهتم بعلماء كل بلد يحله أو أدبائه .»[15]

وإن تتعبنا مسار كعباش في تسريده لرحلاته نقبض على ملامح البنية الانتقائية التي يتكأ فيها السارد على انتقاء تجارب بعينها في جزء، وتأجيل بعضها إلى الجزء الآخر قصدية ضمان تسلسل الأحداث ومنع اللاتشابك واللاتجانس بين جزئياتها« الانتقاء ضرورة في كل نوع من أنواع الرحلة وهو يتم بطريقة واعية حينا، وغير واعية أحيانا، وتتحكم الذاكرة والمادة المتوفرة في ذلك ولكن الانتقاء هنا واع مدرك قائم على حصاد رحلات متعددة »[16].

بما أن السارد تخير منهج التدوين الانتقائي يستلزم أن بنية الرحلة انتقائية، ويمكننا الإبانة من خلال المتن الرحلي؛ لما طرح زواجه عنصرا وسطا بين الرحلة القرارية والتونسية لمزيتين: أولا: مراعاة للتراتب الزمني، وثانيا: باعتباره سبب من أسباب الانقطاع المرحلي عن التحصيل، ولكنه امتنع عن ذكر تفاصيل الأسرة مثل عدد الأبناء و أحوالهم ... محيلا لمرجعيتها في المرحلة الفتية قائلا « أما كم عدد أفراد ذلك العش العائلي السعيد، وكيف نشأوا في حضن والديهم، وما هي حظوظهم من التربية والرعاية فتلك شؤون سوف أبينها خلال مرحلة الفتوة وجهود الإصلاح والتغيير؛ لأنها تشكّل حلقة خاصة في ذلك المشوار بكل ما يعرفه من شدة أو رخاء... »[17] . فرغم التسلسل المنطقي للأحداث إلا أن كعباش انتقى ما يتلاءم والحلقات الرحلية التعليمية، و برمج ما يتعلق بالأولاد و شؤونهم في مرحلة أخرى تناسبها. وبما أن الرحلة تقوم أساسا على السفر فإننا سنقارب عناصر بنائها فيما سيأتي :

1-الرفيق :يعد الرفيق لازمة من لوزام الرحلة العلمية الكعباشية اعتنى السارد بذكره عبر الفضاءات التي ارتادها ترى ما هو السبب؟ تراوحت رفقة الرحالة بين أقران لم يذكر مسمياتهم في رحلته إلى الكتّاب شبه حالهم عند الاصطفاف لانتظار المعلم بالقطط الصغيرة لتآلفهم وبراءتهم يقول : « آخذ مكاني على عتبة الكتاب مع بعض الرفاق ننكمش إلى بعضنا البعض كالقطط الصغيرة انتظاراً لقدوم المعلم وفتح الباب »[18].

و بين رفاق كان يحرص على ذكرهم ؛ رفاق البعثة القرارية و التونسية .

رفـاق البعثة إلى القـرارة	رفـاق البعثـة إلى تونـس
-بكلي باية أحمد بن حمو	- العايب محمد بن بالحاج
- بكلي عيسى بن بنوح	- قرقر عيسى بن سليمان
- الحاج سعيد امحمد محمد بن الحاج سعيد	-ب ابكر قاسم بن الحاج صالح
- حاج إبراهيم أحمد بن محمد	
- خير الناس عيسى بن إبراهيم	
- سماوي صالح بن عمر	

ولعلنا نستدل في تفسير ذكر اسم الرفيق على مرجعيتين؛ الأولى مباشرة عليّة إشارته في عتبة مقدمة الكتاب أنه يترجم لرجال الإصلاح في بلدته، والثانية تفسيرها تفوقه على الأقران، وحصوله على الدرجة الأولى في الامتحانات السنوية في كل الفضاءات العلمية، يقول عن القرارة « وحافظت على تلك الميزة طيلة سنوات المعهد، فلم يجرؤ أحد أقراني أن يفتكها مني — والحمد الله — بينما بقي كثير من زملائي الذين سبقوني إلى البعثة يتعثرون في المصلى لشهور و سنوات لإنجاز حفظ القرآن، وهو شرط الالتحاق بالمعهد [19]، وكذلك في تونس: « وكنت على رغبتي الملحة كعادتي في معهد الحياة ألا أقنع بدون المرتبة الأولى في الامتحانات فكان لي ما أردت — بعون الله — إذ سجلت على رأس قائمة الناجحين في الحصول على الشهادة بينما أحفق الكثير من زملائنا ممن يتعالون علينا في أول سنة » [20] ، وفي الرحلة الجامعية تمحور دور الرفيق في شركاء المذاكرة .

إذن كعباش كان متفوقا في مشواره الدراسي لا ينازعه قرين أو زميل على المرتبة الأولى، حتى أنه يتقلد مسؤولية البعثة العطفاوية في كل رحلة، ونحن نلامس هاهنا نوعا من الاعتداد بالنفس في ذكر الرفيق .

لكن لو تأملنا مليا أدركنا أن الحديث موجه إلى القارئ الميزابي وغير الميزابي ؛ إذا نحينا الثاني وركزنا على الأول وجدناه أي المحيط البشري الميزابي على دراية بهذه الشخصيات المثقفة التي لا محالة تعتلي مناصب مرموقة في ميزاب، فمن كان أعلى منصبا ممن ذكروا فليعلم الجميع أنه متفوق، وإن كان أدنى فذاك ما يجب أن يكون. خاصة أن كلامه تضمن أفعال تعالي بعض الأقران.

2- **الشيـــوخ** : حدثنا كعباش عن الشيوخ الذين تتلمذ على أيديهم في رحلته العلمية، « فقد عمد كثير من الرحالة إلى ذكر العلماء والأدباء الذين لقيهم و قرأ عليهم، والكتب التي درسها معهم، والمجالس التي حاوروهم فيها، وترجم لهم .»[21]

لنلاحظ الجدول الآتي :

الفضاء العلمي	الشيـــوخ	المواد المدروسة
الكتـــّاب	1_ الحاج إبراهيم محمد بن بهون	القرآن + المحاورات الفقهية و التاريخية
	2_ أحمد بن عبد القادر الزنيني	القرآن الكريم
القـــــرارة	الشيخ الإمام بيوض	دروس عامة في المسجد . أصول الفقه من كتاب (طلعة الشمس)
	الشريفي الشيخ عدون بن الحاج	النحو و الصرف و أصول الدين
	أداود إبراهيم بن عمر	الشرعيات و بعض الأدبيات
	محمد علي دبوز	التاريخ و التربية و علم النفس
	بيوض بكير بن عمر	الفقه و الأحكام العملية في الميراث
	الحاج أيوب إبراهيم بن يحي	التاريخ و الآداب
تونـــــس	الشيخ محمد الفاصل بن عاشور و الشيخ محمد الزغواني	التفسير
	الشيخ البشير النفير	دروس الأحكام للجصاص و ابن عربي
	الشيخ محمد اللقاني	في مقاصد الشريعة للطاهر بن عاشور
	الشيخ العربي الماجرري	كتاب الفروق للقوافي
	الشيخ محمد العلاني	مصطلح الحديث
	الشيخ أحمد بن ميلاد	في المنهاج لأصول الفقه
	الشيخ علي التريكي	في القراءة رواية قالون و ورش على نافع

نخلص من الجدول أن كعباش تتلمذ على يد شيوخ (القرارة وتونس) متغايرة تخصصاتهم مما يؤكد أنه شخصية موسوعية متعددة المعارف والمشارب من الداخل والخارج. أشار في المتن الرحلي أنهم أحبوه؛ مثلا الحاج إبراهيم بن بهون كان ضلعاً فعّالا في عودته للعلوم، ومشجعا له، حرص على ذكر أصحابه من الشيوخ ممن كان يسترق السمع لمحاوراتهم صغيراً. إضافة إلى حصاده لإجازة في تونس من الشيخين؛ الشيخ محمد الفاضل بن عاشور ، والشيخ محمد الزغواني في التفسير.

وبالمقابل صرح بحبه المفرط لشيوخه معترفا بصنيعهم قائلا:« فقد أسهم هؤلاء الأساتذة الفضلاء في تكويني الأدبي والعلمي فجازاهم الله عني خيراً وبوأهم المقام الأسمى في علين »[22]، وقوله « رحم الله هؤلاء المشايخ العظام ورضي عنهم، فقد كانوا يبادلوننا حبا بحب ووفاء بوفاء، ويعتبروننا النموذج الحي للطالب المثالي الذي يدرس العلم للعلم » [23] وقد أهدى لهم (رحلة العمر) في عتبة الإهداء[24].

3–الوصـــف : بعد قراءة المتن يلاحظ هيمنة حضور الوصف على البنية السردية « إذا كان السرد يشكل أداة الحركة الزمنية في الحكي، فإن عموما الوصف هو أداة تشكل صورة المكان، ولذلك يكون للرواية –أية رواية– بعدان أحدهما أفقي يشير إلى السيرورة الزمنية، والآخرة عمودي يشير إلى المجال المكاني الذي تجري فيه الأحداث وعن طريق التحام السرد ينشأ فضاء الرواية» [25] حيث نقل كعباش مشاهداته في غرداية والفضاءات العلمية التي ارتادها، يمكننا تقطيعها إلى وصف المكان، ووصف الطقوس والعادات :

أ–وصف المكان : تمظهر في توصيف الكتّاب في ميزاب في الحقبة الاستعمارية المائز بالبدائية والبساطة، يقول : « كان التعليم تقليديا محضا يقتصر على تحفيظ القرآن الكريم تلقينا للأطفال الصغار أو استظهارا لحصص معينة للكبار، وتسجيلا لها على الألواح الخشبية بإملائها من طرف المعلم، وهو يتربع على مدرج مبني في صدر الغرفة، مفترشا جلد شاة، ومتلفعا ببرنوسه الخشن شتاء، وبعباءة فضفاضة صيفا، وإلى جانبه الدواة والأقلام، وعدد من العصي تختلف في طولها بعدا أو قربا من صفوف التلاميذ الذين يصطفون أمامه جلوسا على الأرض المفروشة بالحصر البالية شتاء أو المرملة صيفا»[26]. نلاحظ أن الوصف دقيق شامل، نقل دور الكتاب وقتئذ المشطور بين متمدرسين متغايرة نوعيا خاضعة للسن (كبار،صغار)، وطبيعة لباس الشيخ الرسمي مصحوبا بعدته التدريسية المتعلقة بالمواد الكتابية والعقابية ، وتجدر الإشارة إلى دور المساجد وقتها في حفظ ثوابت الأمة؛ اللغة والدين .

– ووصف دار البعثة الميزابية في تونس مشيدا بمعمارها يقول:« دار البعثة مستقرها في نهج ابن خلدون ... وكانت الدار على الطراز الإسلامي التركي الفاخر، ذات مقصورات وغرف واسعة

يتوسطها فناء واسع يقوم على جانبين منها رواق بأعمدة رخامية، ويتوسط الفناء سياج مربع لفلة مزهوة يتضوع أريجها من حين لآخر، وقد أضفنا على مدخلها مرافق الطهارة » [27] وهي تصوير نموذجي للمعمار التونسي الأصيل .

ب – وصف لوحات وعادات ميزابية :

نقل كعباش صورا اجتماعية ترجمت الواقع الميزابي زمن الثورة، لعبت أمه دور البطولة فيها على متمفصل الكبار، وهو على مستوى الصغار، يقول : « فشمرت الأم على ساعد الجد لكفالة طفلها بكد يمينها نسجا للأكسية الصوفية أو تعميرا للمضاجع الصوفية (المطارح) على مختلف أحجامها عند العائلات أو تنظيفها لغسيلها في مختلف الأجنة بحثا عن بئر تتوفر فيها مرافق الغسيل والماء الضروري لذلك »[28] انعكاس لعمل المرأة الميزابية المكافحة في مجال الصوف لتحصيل قوت يومها، والتكفل بوحيدها .

ثم يضيف:« في مثل هذه السن يتحتم على أبناء الفقراء أمثالي أن يضربوا في أرض الله للكسب والارتزاق عملا في إحدى متاجر " ابن ميزاب" في مدن الشمال بأجر زهيد في عمل شاق لا رحمة فيه للطفولة البريئة»[29] تصوير لعمل واستغلال الأطفال الصغار في الشمال اللامجانس لبراءتهم .

ومن الصور العريقة أيضا التي تتقاطع مع سائر الطقوس في الجزائر حفل ختم القرآن الكريم، وفعالياته التي تستهوي السارد نظير الصدقات الموزعة خلالها: « الحفل عبارة عن حضور الشيخ المعلم مرفوقا ببعض التلاميذ من رفاق المحتفل به، وبعض الطلبة (إيــروان) الحافظين للقرآن، فيجتمعون بعد صلاة العصر مباشرة أمام المحتفل به، وهو في اللباس التقليدي للطلبة، عباءة بيضاء وطاقية ولحاف ثم يتلون النصف الأخير من" آل عمران " ... وبعد الدعاء والمباركة يتقدم التلميذ التالي للمحتفل به في الحصة القرآنية يتقدم وينادي بأعلى صوته في الحاضرين فلان بن فلان قد بشر بالقرآن كناية على بلوغه الآية الكريمة المذكورة ثم توزع على الجميع ما أعده ولي التلميذ من الصدقة، وكانت عبارة عن أرغفة وبيض وفول يوضع في لفة قماش أبيض لكل واحد

من الحاضرين، وتبعث كمية من الخبز والفول إلى المسجد، وإذا كان الولي موسرا فقد ينفح لكل الحاضرين بعض النقود»[30] واللوحة تدليل على تباين المستوى المادي للطلبة، وعلى أريحية فئة منهم، حيث حاول كعباش إقامة احتفالية مماثلة فعجز لولا تدخل المحسنين.

- **وصف اللباس الزيتوني** : اعتنى كعباش بتوصيف اللباس المتباين حسب المناسبات والمقامات، منها لباسه الزيتوني وهو عبارة عن« عباءة ممتازة مطروزة مختلفة القماش بما يتلاءم مع الشتاء، والصيف، واضعا على هامتي طربوشا لماعا ومنتعلا حذاء نظيفا، وبرنوسا من الوبر أضعه على كتفي وفق الزي التقليدي للطلبة الزيتونيين »[31]. يعد مرجعية تاريخية للباس التونسي التعليمي وقتها، تقارب صورة لباس شيخ الكتّاب، مرد توصيف جماليته انعدام حيازته حتى للملابس الداخلية مسبقا نظير الفاقة والعدم.

* **الشعر**: وظف كعباش الشعر في المتن الرحلي مشاكلا بقية كتاب الرحلة « فبعضهم شعراء فدفعهم ذلك لقوله في المواقف المختلفة أثناء رحلتهم و لاسيما عند فراقهم لمواطنهم ، وتوديعهم للأهل والأصحاب، وعند ملاقاة العلماء أو الحنين للوطن و ربوعــه، ومن لم يكن شاعــرا تمثل قوله في الاستشهــاد كالرافعي »[32]

ولأن صبغة الرحلة الكعباشية التقطع والتواتر أوجدت مجالا للوداع، طرح فلسفته كما يلي :

وداع فضاء العلم (القرارة) من عينية ابن الصمة القشيري قائلا :

بنفسي تلك الأرض ما أطيب الربى وما أحسن المصطافا والمتربعا

وليست عشيات الحمى برواجع عليك، ولكن خل عينيك تدمعا[33]

أما وداع الزوجة فتعدد بأبيات غزل ،منها أبيات لابن الرزيق البغدادي :

أستودع الله في بغداد لي قمر بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه

ودعته وبودي لو يودعني صفو الحياة وإني لا أودعه

فكم تشبت بي يوم الرحيل ضحى وأدمعي مستهلات و أدمعه[34]

لكن يستدرك معبرا عن حلاوة الفراق لخلقه متعة اللقاء من خلال البحتري القائل :

ولو عرف الناس اللقاء وحسنه لحبب من أجل اللقاء التفرقا[35]

خاتمة:

– طرح كعباش رحلته العلمية شتاتا في أتيوبوغرافيا "رحلة العمر" ذات المرجعية المذكراتية، وأفرغ حمولتها الفكرية موزعة على فضاءات مكانية متغايرة داخل الوطن وفي تونس، تميزت بالجبرية بداية، لكن سرعان ما صبغت بالاختيارية لشغفه بتعاطي العلوم. واصطدم بمعيقات أغلبها مادية كان للمحسنين دور هام في استئصالها.

– استعان في تسريده بالمنهج الانتقائي وفق بنية نمطية؛ أسها استراتيجية بنائية مطلعها الصعوبات، الرفيق، والشيوخ، الوصف المهيمن على البنية السردية، والشعر.

– نقل كعباش صورا اجتماعية تترجم الواقع الميزابي إبان الثورة. فالرحلة تعد سجلا تأريخيا للحقبة الاستعمارية.

– عرضت الرحلة طقوسا ميزابية كتابيّة، وزيتونية كاللباس الرسمي...

الهوامش والإحالات:

1– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (1998)، دار الغرب الإسلامي، ط1، ج2 ، ص 381.

[2] – محمد غزلاوي، التوليف بين الرحلة و السيرة الذاتية، الأدب المغربي نموذجا، (2012) ، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، (جامعة غرداية) ، العدد 16، ص 44.

[3]– ينظر ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، (1995)، دار النشر للجامعات(المصري)، ط1، ص63.

[4] – محمد سعيد كعباش، رحلة العمر، (2015)، مكتبة التوفيق، (العطف، الجزائر)، ط1 ، ص 7–8.

[5] – ينظر ناصر عبد الرزاق، الرحلة في الأدب العربي ، ص 66.

[6] – ولي الدين الرحمان بن محمد، مقدمة ابن خلدون، (2004) ، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، دار البلخي، (دمشق)، ط1 ،ج2 ، ص 353.

[7] – نفسه ،ص355.

[8] – ابن خلدون،المقدمة ، ص 353.

[9] – شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، (أبريل 2002)، ، مكتبة الأدب المغربي، الهيئة العامة لقصور الثقافة كتابات نقدية شهرية (121) ، ص 140.

[10] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي،ج3، ص 274-275.

[11] – ابن خلدون،المقدمة ، ص 348.

[12] – – محمد سعيد كعباش، رحلة العمر، ص 26 .

[13] – محمد كعباش، رحلة العمر، ص 35.

[14] – ناصر عبد الرزاق، الرحلة في الأدب العربي، ص 71.

[15] – المرجع نفسه ص 73.

[16] – نفسه ص 76.

[17] – محمد كعباش، رحلة العمر، ص 55

[18] – نفسه ،ص 21

[19] – محمد كعباش، رحلة العمر ،ص 46.

[20] – نفسه ،ص 64.

[21] – حسين نصار، أدب الرحلة، (1991)، مكتبة لبنان دار للطباعة، (القاهرة)، ط1 ، ص 35.

[22] – محمد كعباش، رحلة العمر ، ص 48.

[23] – محمد كعباش، رحلة العمر ، ص 63.

[24] – ينظر الزهرة بوطالبي ، قراءة في كتاب رحلة العمر لمحمد سعيد كعباش مرحلة الإصلاح و التغيير،أعمال الملتقى الوطني الشيخ محمد بن إبراهيم سعيد كعباش، (2018)، جامعة غرداية، ج1 ،ص125 – حيث تعرضنا لمدارسة عتبة الإهداء الذي برهنا أنه صدقة للشيوخ و المهدي لهم.

[25] – حميد الحمداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي،(1999)، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع،(الدار البيضاء)،ط1 ،ص80.

[26] – محمد كعباش، رحلة العمر ،ص21 .

[27] – محمد كعباش، رحلة العمر ،ص67 .

[28] – محمد كعباش ، رحلة العمر ، ص15

[29] – نفسه ،ص25.

[30] – نفسه ،ص22.

[31] – محمد كعباش ، رحلة العمر ،ص64.

[32] – عواطف بنت محمد يوسف النواب، كتب الرحلات ، (2008) ،دار الملك عبد العزيز ، (الرياض) ، ص19 .

[33] –محمد كعباش، رحلة العمر ،ص57.

[34] – نفسه ،ص60.

[35] – نفسه، ص59.

المصادر والمراجع :

1. الزهرة بوطالبي ، قراءة في كتاب رحلة العمر لمحمد سعيد كعباش مرحلة الإصلاح و التغيير،أعمال الملتقى الوطني الشيخ محمد بن إبراهيم سعيد كعباش، (2018)، جامعة غرداية، ج1 .

2. حميد الحمداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي،(1999)، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع،(الدار البيضاء)،ط1 .
3. شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، (أبريل 2002)، ، مكتبة الأدب المغربي، الهيئة العامة لقصور الثقافة كتابات نقدية شهرية (121).
4. عواطف بنت محمد يوسف النواب، كتب الرحلات ، (2008) ،دار الملك عبد العزيز ، (الرياض).
5. محمد سعيد كعباش، رحلة العمر، (2015)، مكتبة التوفيق، (العطف، الجزائر)، ط1 .
6. ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، (1995)، دار النشر للجامعات(المصري)، ط1،
7. -أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (1998)، دار الغرب الإسلامي، ط1، ج2 .
8. -أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي،(1998)، دار الغرب الإسلامي، ط1،ج3.
9. -حسين نصار، أدب الرحلة، (1991)، مكتبة لبنان دار للطباعة، (القاهرة)، ط1 .
10. -ولي الدين الرحمان بن محمد، مقدمة ابن خلدون، (2004) ، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، دار البلخي، (دمشق)، ط1 ،ج2 .

المجلات:

-محمد غزلاوي، التوليف بين الرحلة و السيرة الذاتية، الأدب المغربي نموذجا، (2012) ، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، (جامعة غرداية) ، العدد 16 .